. نظرية السلالم الحجاجية

تناول نظرية السلالم الحجاجية عدد كبير من العلماء، في تخصصات شتى[1]. وهذه النظرية تتأسس على الفكرة القائلة بأن المتكلم يتكلّم بغرض التأثير. وإذا كان يتكلم بغرض التأثير، فإن حجاجه سوف يكون موجها وجهة ما؛ ومن أجل إحراز النجاح في حجاجه، فمن الطبيعي أن يحشد أكبر قدر ممكن من الحجج التي تدعّم وجهة نظره، وتدحض في الوقت نفسه وجهة نظر محاوره، أو تعدّلها، أو توجّها وجهة مغايرة للوجهة الأصلية. وهكذا فإن الحوار يكون محكوما في كل لحظة وحين بمقاصد المتحاورين. ويعمل كل طرف على حشد أكبر قدر ممكن من الحجج، التي تدعّم وجهة نظره وتتفاوت نوعا وقوة.

فإذا قال القائل : أكرم زيد أخاه. (ح1)

أو قال : أكرم زيد صديقه. (ح2)

أو قال : أكرم زيد عدوّه. (ح3)

فإن النتيجة هي : زيد نبيل الخلق (ن)

وهكذا فإن مجموعة الحجج (ح1، ح2، .. إلخ) تخدم نتيجة بعينها (ن)، وهي تشكّل « فئة حجاجية »[2]؛ لأنها تتميّز بنتيجتها المشتركة. ويمكن ترتيبها، من جهة قوتها الإقناعية، في « سلّم حجاجي » يمتاز بالتدرّج.

ويعرّف السلّم الحجاجي كما يلي[3] : السلّم الحجاجي مجموعة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين :

- كل قول يقع في مرتبة ما من السلّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه. وأنت ترى بأن قول القائل : أكرم زيد صديقه، يقتضي بالضرورة بأنه يكرم أخاه. وإذا قال : أكرم زيد عدوّه، فإنه يقتضي أنه يكرم صديقه فضلا عن أخيه.

- كل قول كان في السلّم دليلا على مدلول معيّن، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه. فقول القائل : أكرم زيد عدوّه أقوى حجّة في الدلالة على نبل خلق زيد، ولا حاجة للقول : أكرم زيد صديقه، أو أكرم زيد أخاه. ولا يقتضي هذا أن يكون العكس صحيحا، فقول القائل : أكرم زيد أخاه لا يقتضي بأنه يكرم صديقه، كما أن قوله : أكرم زيد صديقه لا يقتضي بأنه يكرم عدوّه[4].

---

[1] انظر : طه عبد الرحمان : اللسان والميزان، ص 273-274.

[2] Oswald Ducrot : Les échelles argumentatives, p.17.

[3] المرجع نفسه، ص 277.

[4] المرجع نفسه، ص 277.

ويمكن أن نمثل للسلم الحجاجي بالخطاطة التالية :

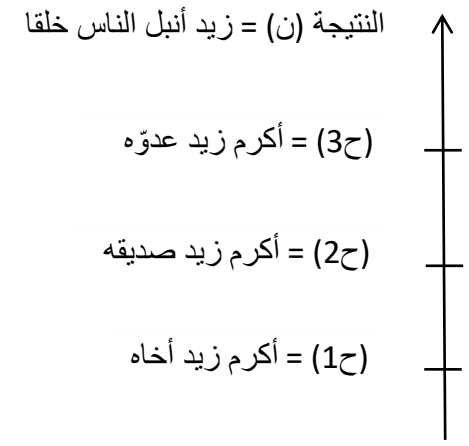

أ. قوانين السلالم الحجاجية

وقد أجملها بعض الباحثين كما يلي [1]:

- **قانون الخفض** : مقتضاه أنه إذا صدق القول في مراتب معينة من السّلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها. وفي المثال السابق : إذا صدق القول في الحجة (ح3)، فإن نقيضه، وهو « لا يكرم زيد عدوّه » يستلزم حتما نقائض الحجة (ح2) و (ح1)، وهي : « لا يكرم زيد صديقه » و « لا يكرم زيد أخاه ».

- **قانون تبديل السلّم** : مقتضاه أنه إذا كان القول دليلا على مدلول معين، فإن نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله. وفي المثال السابق : إذا كانت الحجة (ح1) أو (ح2) أو (ح3) دليلا على النتيجة (ن)، فإن نقائض هذه الحجج، وهي « لا يكرم زيد أخاه » أو « لا يكرم زيد صديقه » أو « لا يكرم زيد عدوّه » هي دلائل على نقيض النتيجة (ن)، وهو : «زيد ليس أنبل الناس خلقا ».

- **قانون القلب** : ومقتضاه أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على نقيض المدلول. وفي المثال السابق : إذا كانت الحجة (ح3) أقوى من الحجة (ح1) في الدلالة على النتيجة (ن) فإن نقيض الحجة (ح3) وهو : « لا يكرم زيد عدوّه »، يكون أقوى في الدلالة على نقيض النتيجة (ن)، وهو : « زيد ليس أنبل الناس خلقا »، من نقيض الحجة (ح1)، وهو « لا يكرم زيد أخاه ».

1

ب. عمليات الوظيفة الحجاجية

في مقال نشره أوسفالد ديكرو عام 1983، يحدد مجموعة من العمليات الرئيسية التي يقوم بها المتكلم، عندما يمارس الوظيفة الحجاجية، وهي أربعة، يرتّبها كما يلي[1]:

- **الاستنتاج (l'inférence)**

فأن يكون ملفوظ ما ناتجَ عملية استنتاج، يعني أنه نتيجة حدث ما، يمكن أن يكون هذا الحدث عنصرا من المقام، أو تلفظا سابقا، أو حدثا أشير إليه سابقا من قبل المتكلّم أو المحاور.

- **الوجهة الحجاجية (la visée argumentative)**

فأن يتّسع ملفوظ ما لوجهة حجاجية أو لوجهات حجاجية متعددة، فهذا يعني أنه يقدّم مجموعة من العناصر الدلالية التي يتضمّنها كاحتمالات حسب المتلفّظين بها؛ من جهة كونها تجيز، باتباع مسار محدد، هذه النتيجة أو تلك. هذه النتائج يمكن أن تكون أفعالا إنجازية، أو تلفّظات متلفّظ بها في نفس الحوار. ويمكن أن تكون أفعالا إنجازية غير مجسّدة في الحوار، ولكن يمكن أن تعوّض بزيادة ملفوظ يؤدي دور الشرح، أو سلوك بعض المواقف غير اللفظية.

مثال ذلك عندما نريد أن نحكم على إنسان فنقول : هو رجل مهذّب، ولكنه صديق غير جدير بالثقة. فالنتائج المتناقضة التي يقترحها التصنيفان المرتبطان بـ« لكن »، ما هما إلا موقفان، أحدهما إيجابي والآخر سلبي، تبعا للإنسان الذي نتحدث عنه.

- **الفعل الحجاجي (l'acte argumentatif)**

أما بالنسبة للحجاج فإن الفعل الذي ينجزه المتحدث يأخذ بعين الاعتبار الوجهة الحجاجية، دون أن يكون ملزما بإثبات الحجة داخل المنطوق لفظا.

- **التوجيه الحجاجي (l'orientation argumentative)**

إن التوجيه الحجاجي قاعدة تتجلى في كل تلفّظ ذي وجهة حجاجية، وهو لا يربط بين الملفوظات الحجاجية والنتائج، ولكنها تتعلق بوجهة الأحداث المضمّنة في الملفوظات الحاملة للوجهات الحجاجية، وبطبيعة الحال وسيلة الفعل الحجاجي. إنّ الملاحظة الأساسية في هذه النظرية هو وجود عدم توافق بين إمكانات الاستنتاج والحجاج. فمثلا : إذا قال أحدهم : المكتب يفتح ابتداء من الساعة التاسعة، فأنا أستطيع أن أجيبه، جاعلا جوابي كنتيجة استدلال: إذن، لا يمكن أن آتي الساعة الثامنة؛ ولكنني لا أستطيع أن أستعمل هذا التلفظ نفسه، وهو: المكتب يفتح ابتداء من الساعة التاسعة، كفعل حجاجي تكون نتيجته

[1] O. Ducrot : Opérateurs Argumentatifs et Visée Argumentative, Cahiers de Linguistique Française (CLF), Paris, 1983, p. 7-9.

: لا يمكن أن آتي الساعة الثامنة. وهكذا ستكون هذه النتيجة موضوع ملفوظ ظاهر، يضاف إلى المحاججة في الحوار نفسه. ويمكن أن تكون متضمنة، كما في حال الحلقة الأولى من سلسلة مرتبط بعضها ببعض بـ« لكن »، كأن تقول : المكتب يفتح ابتداء من الساعة التاسعة، لكن يمكنك أن تودع رسالتك الساعة الثامنة. وبالمختصر فإن التوجيه الحجاجي لا يربط بين الملفوظات الحجاجية والنتائج، ولكنها تتعلق بوجهة الأحداث المضمّنة في الملفوظات الحاملة للوجهات الحجاجية، وبطبيعة الحال وسيلة الفعل الحجاجي.